

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفلسفة الأمريكية والعولمة

سيطرة البرغماتية على العالم

الفلسفة البراغماتية والعولمة: سيطرة البراغماتية على
العالم/ هاني يحيى نصري .- دمشق: دار الفكر، ٢٠١٠
- ١١٢ ص؛ ١٧ سم.

ISBN:978-9933-10-198-5

١- ١٤٤ ن ص ر ف ٢- ١٩٩ ن ص ر ف
٣- العنوان ٤- نصري

مكتبة الأسد

سلسلة
اقرأ .. كتابك ..

الدكتور هاني يحيى نصري

الفلسفة الأمريكية والعولمة

سيطرة البرغماتية على العالم



أفاق معرفة متجددة



دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

<http://www.fikr.com/>

e-mail:fikr@fikr.net

سلسلة اقرأ.. كتابك!!

الفلسفة الأمريكية والعولمة

سيطرة البراغماتية على العالم

د. هاني يحيى نصري

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٧٥,٠١٣

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-198-5

التصنيف الموضوعي: ١٩٠ (الفلسفة المعاصرة)

١١٢ ص، ١٢ × ١٧ سم

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

المحتوى

الإهداء	٨
الفلسفة البرغماتية وعلاقتها بالعلومة	٩
الفلسفة البرغماتية	٢٥
وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠)	٤٥
(برتراند رسل ١٨٧٢-١٩٧٠) والبرغماتية	٧٦
مطية البرغماتية في العالم الإسلامي	٨٨
تعريف	١٠٦



obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ

بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾

[الفتح: ٤٨/١١].

الإهداء

إلى رحمة الله عليه والذي الحاج
الدكتور يحيى خليل إبراهيم محمد
نصري، سلفا السلف الذي آثاره، فرضت
على الأكباج أن تتصدع.

الفلسفة البرغماتية وعلاقتها بالعودة

تقديم

لقد آن الأوان أن ندرك أن الملاحم الكبرى في حياة الأمم لا تكتبها المعارك، ولا السياسات المتحذقة، لا تكتبها سوى الفلسفة التي تعبر خير تعبير عن أمتها، بعيداً عن استعارات العقائد واستيراد الأفكار أو إبهارات الأدب والشعر.

وقوة الفلسفة البرغماتية التي تنتشر اليوم انتشار النار في الهشيم، بعد أن دمرت الاشتراكية ودولها العظمى في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية دون طلبة رصاص، فضلاً عن ذيول تلك الإمبراطوريات في الشرق والعالم الثالث، قوة هذه الفلسفة في ضعف

إيديولوجيتها، ضعفاً جعلها لا تصاغ بشكل إيمان أو عقيدة دوغمائية، بل على شكل مناخ يمتد إلى معظم جوانب حياة الإنسان التي يتعرض لها.

فلا شيء أكثر مدعاة إلى السخرية من شخص من العالم الثالث اعتاد على سيطرة الأحزاب على مسيرة حياته، يسأل حين يصل إلى (أمريكا) عن مكان فرع الحزب البرغماتي في أول مدينة يصلها، لكي ينضوي تحت لوائه، على أمل أن ينال ما كان يناله في بلاده من امتيازات الانضواء!

وسبب هذه البلية المضحكة أنه اعتاد على البيعة - بكل ما تعنيه هذه العبارة - ولم يعتد على الإقرار؟

فالببيعة في تراثنا عبارة تعني الشراء: بايع فلان فلاناً مبايعةً عقد معه البيع^(١). وهو يعني إخراج المبيع عن

(١) بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧م،

الملك، وهنا حين حصوله مع الحاكم يعني إخراج المبايع عن ملك رقبة نفسه، وهو بيع مكروه إلا حين الدخول في الإسلام، إذ ليس من حق أحد سوى الله تعالى ملك رقبة أي إنسان، ما لم يكن القصد ترويضه حتى يفهم الإسلام، ثم له الحق أن لا يبايع أيضاً.

أما الإقرار الكنسي (Confession of Faith) فهو اعتراف بالكنيسة التي يريد المسيحي أن يتبعها، وهو الذي عدلته البروتستانتية منذ (لوثر)، إلى آخر كنيسة انشقت في أمريكا عن البروتستانتيات مع (المورمون)، ومن بعدهم ممن تُسمى بالمسيحيات العلمية.

وهذا الإقرار الكنسي مبني في أساسه على ظن واقعة (Fact) أن الإنجيل؛ أي العهد الحديث، هو عهد بين الله والبشر، يصحح ما حوَّره اليهود في العهد القديم؛ أي التوراة، دون إلغائها، وكل ما فيهما يقيني لا داعي لأي تساؤل حوله!.

لكن الذي طرأ على مصداقية هذه الواقعة وحولها

إلى (أمر واقع De Facto) منذ غاليليه، الأخطاء العلمية الموجودة في العهد القديم، مثل أن الأرض منبسطة، وهي محور الكون والتي يدور الفلك حولها.

وقد كان بالإمكان تجاوز هذا الأمر لولا الوقائع (Facts) الأحفورية، التي أثبتت، أو على الأقل شككت، بأن الخلق بدأ بآدم، من خلال الحرفية التي برزت بها نظريات التطور الدارونية، فلم «تحل سنة ١٩٠٠م حتى كان ثلاثة أرباع السكان البيض في أمريكا يعتقدون أن الإنسان ما هو سوى عضو من ملايين الأعضاء الحية الكائنة في العالم، والتي تطورت جميعها من مصدر أساسي واحد، وأن هذه الكرة الأرضية ترجع بتاريخها إلى ملايين من السنين لا إلى ألوف كما كان»^(١) الاعتراف أو الإقرار الكنسي يشيع الاعتقادات.

(١) فيليب حتي، تاريخ الشعب الأمريكي، مطبعة جامعة برنستون

ولعل الوقائع (Facts) التي قدمتها العلوم الحديثة هذه، حين امتدت إلى باقي المعارف الإنسانية الحديثة «كالقانون، والتاريخ، والاقتصاد، والفلسفة، وعلم النفس، والاجتماع، والفن»^(١)، أوجدت مناخاً فكرياً، وإن لم يكن باستطاعته التخلي عن دينه الذي يجمل كل خصائص الشعب ذي العرق الأبيض وينظم حياته، اتجه بعد تقليص سلطة الدين بفصله عن الدولة كما حصل منذ عصر النهضة، نحو اقتصار الاعتراف الكنسي على الوظيفة الاجتماعية للكنيسة، بدل وظيفتها المتعالية (Transcendental) وسيطاً بين الله والبشر، مما جعل الناس تهمل اللاهوتيات الميتافيزيائية الكنسية، وتدعم في الوقت ذاته الوظيفة الخيرية والتعليمية والاجتماعية لها.

وهكذا نجا الدين المسيحي من اهتزازات مسلماته ووقائعه (Facts) التي دمرتها المعرفة العلمية الحديثة،

(١) المرجع السابق، ص ٢٥١.

وأساس هذه النجاة في إقرار كنسي اجتماعي عام
 وجديد: يُخرج وظيفة الكنيسة عن معالجة الأرواح
 لتخليصها من الجحيم، إلى معالجة مشاكل الفقر
 والجهل والمرض، من منطلق أن الحكم العام على
 الدين في (أمريكا) شأنه شأن أي حكم عام على أي
 نشاط إنساني، صار على نتائج سلوكه لا على ما به
 من ثيولوجيات نظرية مبهرة.

هكذا صار الإنجاز لا الاعتقاد دعامة الشخصية
 الأمريكية المعاصرة، وحين وجد ما يدعم هذا التوجه
 من الإنجيل بقول المسيح عليه السلام: «من الثمر
 تعرف الشجرة... بكلامك تتبرر وبكلامك تدان» [متى:
 ١٢/٣٥]، صار الأمريكي متمسكاً بإقراره الكنسي
 الأدوات هذا، الذي أصبح يشكل معظم إيمانه
 المسيحي (Instrumentalism).

وهذه الأدواتية (Instrumental) امتدت إلى باقي
 المعارف الإنسانية، التي أصبحت تعني في المجال

العلمي أن كل نظرية يجب أن تعامل باعتبارها أداة، تنتج تقانة سيطرة ما، على ما تعالج من أمور (As ADevice)، ولا قيمة عملية لأي نظرية لا تنتج تقانة سيطرة ما.

ولعل نظير هذا في الفكر الإسلامي قوله تعالى: ﴿يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢/٣-٣].

لكن البيعة، بمعنى الإقرار لغير الله ولغير رسوله بالطاعة، استعباد^(*)، وقد وجهت الفكر الإسلامي باتجاه الاعتقادات لا الإنجازات، لكن التماثل قريب بضرورة صلة القول بالفعل.

وقربه يجب أن لا يعني «تماهيه» كما تتسلل البرغماتية من خلال هذا القرب إلى صلب عقائدنا،

(*) الجهل بالشرع لا يحمي المغفلين.

الخالية أصلاً من أي تعارض مع العلم والوقائع (Facts) العلمية، فالقرآن الكريم لم يأتِ بأي «اسم إشارة» يخالف أي واقعة علمية، وضمير الغائب فيه أكبر شاهد على ما أقول، وإلى هذا يجب التنبيه.

أما ما أنا بصده الآن فهو وضع الخلفية الفكرية والاجتماعية لما سمي بعد ذلك (بالبرغماتية) في أمريكا، لأهمية هذه الفلسفة بمعنى المناخ الفكري الزاحف على كل العالم، لا عالمنا الإسلامي وحده، لكي نحدد أبعاده، وإيديولوجياته التي تغزونا في عقر دارنا فنتنفسها مع كل بدعة تقنية نستعملها من تصميمهم الأدوات، والذي يوجهنا نحو الأدوات - دون أن ندري - لكن حسب منطلقنا الخاص وهنا المشكلة.

ففي اللحظة التي أخرج الاعتراف الكنسي الأمريكي الكنيسة من دائرة معالجة الأرواح إلى دائرة معالجة المشكلات الاجتماعية، فرض المناخ الأدوات على الكنيسة الإيديولوجية الأدوات تماماً، لكن بصورة

أقوى مما فرضه عصر النهضة عليها من اعتزال السياسة، بفصل الدين عن الدولة.

وبهذا يمكنني أن ألمح زيادة في قرب مودتهم لنا، بعد أن تجردت معظم كنائسهم عدا الأصولية (البوشية) منها من صليبيتها العدوانية، تصديقاً لقوله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢/٥].

وعلى يد هؤلاء بحثنا في العلوم وأخذنا الشهادات، ومع هؤلاء كنت أعلم في الجامعات الأمريكية بالولايات المتحدة، ومن هؤلاء كنا نتعلم.

وسبب هذا الانفتاح الكنسي تراجع قوة الكنيسة في الغرب بفصلها عن الدولة والسياسة أولاً، منذ عصر النهضة، ثم بردعها عن تجاوز دورها الاجتماعي والتعليمي والإحساني، وعن دائرة معالجة الأرواح

باعتبارها وسيطاً بين الله والبشر إذ تدعي وحدها قدرتها على تخليصهم من نار جهنم، أي بردعها عن التبشير بوقائع أثبت العلم وهميتها.

فالحفاظ على الكنيسة لكن مع الحد من سلطانها، فتح الباب على مصراعيه لشيوع (الأداتية) (*) في المجتمعات الأمريكية البيضاء، وقد قادت هذه الأداتية الأمريكيين البيض إلى التوسع؛ سواء نحو الغرب الأمريكي الشمالي، على حساب الهنود الحمر وما رافق ذلك من لأخلاقيات التعامل معهم، وإلى التوسع في الجنوب على حساب الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية باحتلال البروتستانت للمكسيك وكاليفورنيا، (فمارك توين) مثلاً اشترك في حركة التوسع نحو الغرب، ولم يكن كغيره من الأدباء الأمريكيين مجرد قصاص يحكي

(*) وهي الادعاء بأن المعرفة، وخاصة المعرفة العلمية، مجرد أداة للسيطرة التقنية على الأشياء، ولا شيء فيها غير ذلك بهم، فنظرية (كوبرنيكوس) مثلاً لا تهم إلا من يريد التنبؤ بالخسوف، أما كونها حقيقية أم لا، فلا فائدة من مثل هذا السؤال.

أدباً رفيعاً، كذلك سافر إلى أوروبا والشرق الأوسط وزار (سورية وفلسطين ومصر) مندداً بهؤلاء الأبرياء خارج حدود أمريكا ممن لا يعرفون معنى (الأداتية)، لكي ترتفع بمستواهم الساذج في الخلاف حول من دينه أفضل من سواه؟

أما معارضو هذا التيار الأداتي الجارف، فقد كانوا أمثال الشاعر (ويتمان) من الصوفية، التي لا مكان لها إلا في حلقات ضيقة مثقفة، مازالت تتمسك بالميسيتية (Mysticism) (*) باعتبارها جانباً تحبذه الرهبانية الكنسية، ولا يتعارض مع التوجه العام ضد تدخل رجال الدين في السياسة، ولا بإقصاءاتهم العملية الأداتية، التي أعطت الشعب الأمريكي كله التقنية العالية والعمارة الكولونيالية الضخمة، ثم موسيقا (الجاز) الخاصة بالأمريكيين، وما تبعها من موسيقا الروك الشهيرة،

(*) لشرح الميسيتية (Mysticism) انظر ما قلته بجوارية؛ الصوفية رؤية للعالم، دار الفكر بدمشق، ٢٠٠٩م، ص ١٢٩ وما بعدها.

وهكذا اتجهت الحضارة الأمريكية الأداةية نحو كل أصناف القوة والضحامة والخصوصية التي سمحت بتراكم الثروات، وزيادة البذخ والرخاء، وذلك باستخدام المعرفة أداةً للرخاء ليس إلا.

لذلك يرى القادم إلى أمريكا من أوروبا حضارة متشابهة، لكن الفراة الأمريكية بالضحامة والفضامة بالمباني وناطحات السحاب والبيوت الكولونيالية المترفة، والسيارات الفارهة، حتى وجبات الطعام تقدم هناك بحجم ضعف وجبة الطعام الأوربية، وقد دفعت (الأداةية) بالحاجة إلى عدم إضاعة الوقت بتحضير الطعام بالمنزل، ولكي تدور عجلة الاقتصاد بسرعة بين الطبقة الوسطى، أقول: دفعت العمارة الأداةية إلى تصميم مطابخ صغيرة بمنازل الطبقات الوسطى، فظهرت المطاعم ذات الوجبات السريعة، التي تعمم اليوم على كل العالم، وأساسها إجبار الناس على الأكل خارج المنزل، لكي تدور عجلة

الاقتصاد بسرعة عبر حركة السيولة بين الناس^(١)، فيختزل الوقت الضائع في (أداء) العمل قدر الإمكان لمزيد من الإنتاج، وهذا مثال من ضمن أمثلة الإجبار الأداة، وهو الإنتاج الذي ضخم القوى الصناعية في عصر الصناعة، الذي ساهمت الأدوات الأمريكية في ترسيخه، بسباق صناعي ثقيل بين القوى العالمية الكبرى، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى ثمانينيات القرن العشرين، وهي الفترة التي أطلق عليها (ألفين توفلر) اسم الموجة الثانية العالمية، التي أدت إلى تحول السلطة من يد الإقطاع إلى يد القوى الصناعية (Powershift)، فظهرت الأدوات في أمريكا نظير الشيوعية في الشرق الأوربي والآسيوي، وتبلورت بالمناخ البرغماتي الذي سآتي على تفصيله. وكل هذا حصل قبل خضوع القوة والثروة للمعرفة في الموجة الثالثة

(1) Don Ihde, Philosophy and Design, springer science, u. s. A., 2008, pp51-61

التي نعيشها في القرن الواحد والعشرين اليوم الذي سماه عصر الكوغنيتاريا (Cognitaria) الذي أنهى عصر البلوريتاريا (Pluritaria)^(١)، بما في عصرنا من اقتصاد صناعي عالي الرمزية، في عصر العولمة الذي «تخفي فيه الحدود القديمة، وتهتز فيه بنية المعرفة كلها»^(٢)، ذلك أن عصر المعرفة اليوم مع العولمة يشكل خطراً على السلطات الاقتصادية والصناعية والمالية والسياسية «أخطر من كل الانقلابات العمالية أو الأحزاب السياسية المعارضة، فالثورة المعلوماتية ستنتهي إلى الإفلال من الحاجة إلى رأس المال»^(٣)، والتخلف والتقدم اليوم مرتبطان بمدى فتح المجال المعلوماتي في الدول التوتاليتارية مثلاً، إذ «كيف يمكن لاقتصاد ما أن ينشط في بلد تستطيع شركة

(١) آلفين توفلر، تحول السلطة في بداية القرن الواحد والعشرين، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ج١-٢، دمشق ١٩٩١م.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٥-١٨٦.

الهاتف - التي هي الدولة - أن ترفض تركيبه للناس،
أو تبقئهم عدة سنين في انتظاره؟»^(١).

و حين جاءت الحواسيب وصارت هي التي تتكلم،
سقطت سلطة الدولة هذه، مثل سقوط سلطة إعلامها
على الناس بالأقمار الصناعية، وسقوط سلطاتها على
المصارف الدولية التي تقرر قيمة إنتاجها؛ أي سعر
صرف عملاتها، فلم يبق سوى السقوط السياسي
والحربي بسيطرة سياسة القطب البرغماتي الواحد على
العالم، وهو الولايات المتحدة الأمريكية، فما هي
هذه القوة التي انتقلت من التقديس الديني المسيحي
إلى التقديس الأداتي، إلى البرغماتية الفلسفية التي
تنتقل اليوم بالعولمة إلى كل منزل بالكون، دون أن
يشعر سكانها بمناخها الاقتصادي الذي يطال لقمة
عيشهم، قبل مناخها السياسي الذي يفرض نفسه على
دولهم وهي صاغرة؟!!

(١) المرجع السابق، ص ٢٢١.

ومن عكس فلسفة هذا المناخ لأول مرة وعرف به؟
 بعد أن أصبح المهم أن «من تعرف» أهم من «ماذا
 تعرف»^(١) لتوافر المعرفة بأدق الأمور لكل اليوم،
 وبعبارة أخرى إن القوى الخفية التي كانت تتحكم
 بالعالم والتي أشار إليها (برتراند رسل) بقوله: «ونحن
 نعاني من القوى غير الشخصية العظمى التي تسيطر
 على حياتنا اليومية، فتسبب بقاءنا عبداً للظروف ولو
 أننا لم نعد عبداً بحكم القانون»^(٢)، هي اليوم وبكل
 وضوح: برغماتية العولمة! فكيف ذلك؟

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٢) برتراند رسل، السلطة والفرد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٩٤م، ص ١٠٦.